



جامعة تلمسان



كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

السنة الجامعة : 2021 – 2022

قسم علم الآثار

التخصص: الآثار الإسلامية

المستوى : ماستر 1 السداسي : الأول

عنوان المقياس: العمارة في المشرق الإسلامي

أستاذ المادة : أ.د بلحاج معروف

Email:archeomarouf@gmail.com

عنوان الدرس: العمارة الإسلامية

مفهوم العمارة

لم تنشأ العمارة بكلّ ما تحمل من مبادئ وأساليب متنوّعة من لا شيء، ولكنها أخذت تتكوّن وتتبلور شيئاً فشيئاً عبر العصور والمراحل التاريخية التي قطعها الإنسان الذي كان يحاول دوماً تصميم مسكن يتوافق واحتياجاته الاجتماعية والاقتصادية والنفسية. فعندما شعر الإنسان البدائي بحاجته الملحة إلى مأوى يحميه من الظروف القاسية للوسط الطبيعي الذي يعيش فيه، لجأ إلى المغارات فنظّم ورتّب فراغاتها وفق احتياجاته ونشاطاته المختلفة، وعلى هذا الشكل تعرّف الإنسان على المبادئ الأولى للعمارة!

مفهوم العمارة

إنّ انتقال الإنسان من مرحلة جمع الطعام والصيد إلى مرحلة تربيّة المواشي والزراعة جعلته يحتاج للعيش في حياة مليئة بالاستقرار والأمن، وقد استدعى به الأمر إلى البحث عن مسكن بالقرب من مصدر مائي يتلاءم والاشتغال بالرعي وممارسة النشاط الزراعي، فلجأ إلى ما تمنح له الطبيعة من مواد بناء، فاستغلّها أحسن استغلال في بناء مسكنه، وقام بتنظيم وتوزيع فضاءاته الداخلية حسب احتياجاته اليومية ورتبته وفق أذواقه، ونشاطاته داخل المسكن. ويبدو أنّ الإنسان في تلك المرحلة قد أعطى أهميّة للطبيعية الشمس والقمر والمطر والعواصف، فراقبها وأنجز مبانيه انطلاقاً من تلك الملاحظات، وهكذا برزت فيما يبدو بعض مبادئ العمارة الرمزية. ومنذ تلك المرحلة أخذ أسلوب البناء والتشييد يتطوّر وينمو، فمن الطين وجزوع الأشجار المختلفة انتقل الإنسان إلى استخدام الحجر غير المنحوت ثمّ الحجر المنحوت إلى أن ابتكر وسائل إنشائية جديدة أكثر تعقيداً مثل الأعمدة والعقود والأقبية والقباب وغيرها من العناصر المعمارية المختلفة

مفهوم العمارة

- بمرور الزمن تطوّرت الأساليب الإنشائية في العمارة فبرزت بموازاة مع ذلك محاولات عديدة في مجال البحث عن سرّ العمارة وجماليتها، فوضعت لذلك نظريات واختلفت الآراء ووجهات نظر المعمارين حول إعطاء مفهوم دقيق للعمارة. وهكذا فقد جعلها بعض الفلاسفة اليونانيين بمثابة أمّ الفنون
- ويبدو أنّ العمارة الدينية داخل المجتمعات اللاهوتية كانت المجال المناسب للفنان لإظهار قدراته الإبداعية وابتكاراته الفنية في ميادين أخرى خارج العمارة مثل النحت والرّسم، وهذا ما جعل ريمون بايبر يعدّ العمارة المنبع الأصلي للفنون الأخرى والتي تجلّت نشأتها حسب رأيه على جدران المعابد

مفهوم العمارة

- ويُعدّ فيثروفيوس أوّل من قدّم تعريفا علميا للعمارة في كتابه دي أرشيتكتورا De Architectura مفاده أنّها علم يشتمل على مجموعة متنوّعة من الدراسات والمعارف، حيث تقوم باختبار نتاجات الفنون الأخرى. وتعدّ العمارة في نظره ثمرة تأتي جرّاء بدل مجهودين أساسيين؛ أحدهما نظري، والآخر تطبيقي
- فالنظري يقوم بإثبات صحّة ودقّة النسب المتوخّاة في الأشياء المعالجة
- أمّا التطبيقي فهو علاج الفكرة بالممارسة، أي تحقيق الفعل الذي يعطي للمادّة المستعملة الشكل المرسوم
- وقد عُرِّفت العمارة أيضا على أنّها تكوين فضائي يستجيب لمتطلّبات المنفعة والمتانة والجمال والاقتصاد، وتظهر براعة المهندس المعماري في تحقيق نوع من الانسجام والتوازن بين هذه العناصر الأربعة

مفهوم العمارة

- ولقد ركّز عرفان سامي عند محاولته إعطاء مفهوم للعمارة على تلك العناصر الأربعة، فيرى أنّ العمارة هي الفنّ العلمي لإقامة عمائر تتوفّر فيها الشروط الآتية: المنفعة والمتانة والجمال والاقتصاد والتي يمكنها تلبية حاجيات الإنسان المادية والنفسية والروحية، وذلك بالاعتماد على أحسن الوسائل الإنشائية المتوفرة في ذلك العصر، ولكن شريطة أن يقوم بإنجاز ذلك المبنى معماريون لهم دراية كافية بالظروف البيئية المحيطة بالمعلم
- وأمّا المعماري الفرنسي لوكوربزييه Le Corbisier الذي كان بلا شك متأثراً كثيراً بالعمارة القديمة ولاسيّما الإسلامية، فلقد حاول بقدر الإمكان الاستفادة من تجارب السابقين، فرأى على ضوء مسار تاريخ العمارة أنّها لعب متقن بالكتل منظورة تحت الضوء
- وتعدّ العمارة عند بعض الباحثين بمثابة الروح الخالقة التي تتطوّر عبر الزمن تماشيًا مع الطبيعة والظروف المحيطة بالإنسان، سواء كانت بيئية أو اجتماعية

مفهوم العمارة

- وأما صاحب كتاب نظريات العمارة فقد أعطى تعريفا شموليا لمفهوم للعمارة، معتقدا أنّها انعكاس للنشاط الاجتماعي للإنسان من كلّ جوانبه الاقتصادية والاجتماعية والبيئية
- والشيء الذي نستنتجه من هذه التعريفات المختلفة السالفة الذكر، أنّ العمارة ما هي إلاّ شكل من الأشكال لتلبية حاجيات الإنسان المختلفة، واستجابة لممارساته الاجتماعية

تأثر العمارة الإسلامية بالفنون القديمة

- استفاد المسلمون في بداية عهدهم بتجارب وخبرات الأمم التي دخلت في الديانة الإسلامية، لاسيما أنها كانت ذات حضارة عريقة، ومن الطبيعي جدًا أن يتأثروا بفنون تلك الأمم، خصوصاً أن العرب لم يصلوا بعد إلى استخدام تلك الأساليب المتطورة في مجال العمارة والبناء وما يتبعها من الزخارف المتنوعة. وهكذا تأثر المسلمون بالفن الساساني والبيزنطي والهانستي والقبطي والقوطي
- وهذا حال الحضارات التي تؤثر وتتأثر فيما بينها، إذ لا يمكن لأي فن أن ينشأ من عدم، فلا بدّ أن يستفيد الفن المستحدث من فنون السابقة، ويعتمد عليها في البداية لكي ينطلق ويكون شخصيته. فالفن اليوناني مثلا اعتمد في بداية ظهوره على فنون الشرق الأدنى وبصفة خاصة الفن الفرعوني.
- قام المعماري المسلم باستغلال تلك التجارب المعمارية السابقة وصاغها وطورها على حسب احتياجات ديانته التي أضفى عليها طابعا خاصا، وبمرور الزمن أثبتت العمارة الإسلامية بخصوصياتها المتميزة مكانتها ضمن فنون العمارة الأخرى، وأصبح من الصعوبة بمكان محاولة تمييز تأثيرات الفنون الأخرى عليها.

تأثر العمارة الإسلامية بالفنون القديمة

- إذا كان الفن الإسلامي قد تأثر منذ نشأته بفنون البرلاد التي فتحوها وخاصة الساساني والبيزنطي فإنه قد استبعد منها الجوانب الأسطورية وفنون المحاكاة الشكلية ثم عالج فنونها التجريدية بما يتفق وتعاليم الدين الإسلامي وروحه وفلسفته، وبهذا تميز الفن الإسلامي عن الفنون الأخرى.
- لقد تهيأت النفوس أهل بلاد الجزيرة العربية ذات البيئو الواحدة لتقبل الأشكال الفنية ولفلسفات العقائدية التي تكتمل في أي بلد لاسيما وأنه لا توجد فوارق كبيرة في الطبيعة الجغرافية بين مختلف البلاد الإسلامية باستثناء تركيا والهند حيث تمتازان بتساقطات مطرية كبيرة، وهذا ما استدعى اختلافا في بعض التشكيلات المعمارية.
- إن الفن الإسلامي لم يأخذ كل ما صادفه في فنون الحضارات من موضوعات وعناصر بل وقف منها موقف الفاحص الناقد ولذلك أمضى الفنان المسلم وقتا طويلا في عملية استجماع واختيار ومزج

تأثر العمارة الإسلامية بالفنون القديمة

حينما أراد المعمار يون المسلمون إضافة سقف لمسجدهم جعلوه في شكل قبة رمزا للسماء، وأقاموها أمام المحراب كما استخدموها في تغطية الأضرحة، لكنهم لجأوا باستثناء الأتراك إلى القبة الساسانية ذات الحنايا الركنية، بعكس العثمانيون الذين استعملوا القباب البيزنطية ذات المثلثات الكروية

لقد استخدم المسيحيون القبة في تغطية الكنائس والبازيليكات، لكن بشكل مختلف عن الجامع، إذ استخدمت البيزنطيون القبة ذات المثلثات الركنية الأمر الذي يتماشى والناحية الرمزية في تشكيل الفراغ الداخلي بتنظيم العناصر المعمارية ضمن نظام متدرج من الأعلى نحو الأسفل متناولا صور الملائكة والقديسين حسب درجاتهم ورواتبهم.

حين سيطر الأتراك على القسطنطينية سنة 1453م وجدوا أن القبة البيزنطية مثالية لحماية المصلين من العوامل الطبيعية (الأمطار والثلوج) فاقتبسوا نموذجها لمساجدهم بعد أن أضافوا إليها المئذنة التي أحدثت أثرا عجبيا ذلك أنها ربطت المبنى بالسماء بعد أن كان منفصلا عنها

تأثر العمارة الإسلامية بالفنون القديمة

- في مجال تأثر العمارة الدينية بالبيئة المحيطة يسوق جاستون فييت مقابلة بين الكنيسة القوطية والمسجد فيقول " تمتلأ الكنائس والكاتدراليات من الداخل بالأقبية نصف البرميلية التي تحاكي قمم الأشجار وغابات أوربا الكثيفة بينما يحاكي الجامع بركائزه صوار النخيل فيبدو غابة متفتحة لا سر فيها ولا غموض ... ومرد هذا الوضوح الإضاءة المباشرة المنبعثة من الصحن المكشوف، وتظهر الكنائس من الخارج بمجازها الأوسط الشاهق الارتفاع وأبراج نواقيسها المخروطية أو المذبية وكأنها تبحث عبثا عن منفذ في السماء، بينما يبرز المسجد وكأنه قد نفذ فعلا إلى السماء رامزا إلى السكينة والإيمان الرصين والشجاعة المطمئنة التي تسلم مقاليدها إلى الله "
- ويقول أيضا " إذا كان معيار الأصالة في أي طراز من الطرز المعمارية هو أسلوب استغلال الفراغ فإن تصميم الجامع هو النموذج الذي يعبر بوضوح عن جوهر عقيدة الإسلام بصفته دينا أصيلا له شخصيته المتميزة.

عوامل تشكّل العمارة الإسلامية

- لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هناك عاملين أساسيين ساهما بقوة في تشكّل وبلورة هذه العمارة وهما:

العامل الديني

كانت لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف أثر كبير في صياغة وتكوّن الفن المعماري الإسلامي. وبما أنّ الإسلام قد فرض إقامة الصلاة مثلاً في اتجاه الكعبة فقد جاءت كلّ المباني الدينية (المساجد والمصليات الجنائزية والمدارس والأضرحة... الخ) مرتبطة أشدّ الارتباط بهذا الاتجاه.

العامل البيئي

انتشر الإسلام في أقاليم تختلف عن بعضها في بيئتها الطبيعية من تضاريس ومناخ، وكان لهذا الاختلاف أثره على تشكيل الفن المعماري الإسلامي، وهكذا كان للعمارات المحلية نصيباً هاماً في تبلور هذه العمارة، فحيث كانت الصحراء - باعتبار أنّ معظم الأقاليم الإسلامية تقع في بيئة صحراوية- نجد المباني قد تأثرت بتلك البيئة الصحراوية، فبدت بصمات هذه البيئة واضحة عليها، وانطلاقاً من التنوع البيئي برز تنوع في الطرز المعمارية والمدارس الفنية.

وحدة الطابع المعماري

- وعلى الرغم من الاختلاف أحيانا بين هذه العمارات في بعض التفاصيل أو في العناصر المعمارية الإنشائية كمنحنيات القباب والعقود والتكوينات المعمارية للمآذن أو في بعض الوحدات الزخرفية، فإنّ ذلك لم يثنها من الاشتراك في وحدة الروح الإسلامية الكامنة وراء التكوينات المعمارية والتشكيلات الزخرفية التي أصبحت تقليدا يحفظه المعمارون المسلمون عن ظهر قلب، وهذا ما أدّى في اعتقادنا بجورج مارسيه Georges Marçais إلى الجزم بأنّ الوحدة اللغوية تُعدّ عنصرا مهمّا في تكوين طابع معماري موحد.

وحدة الطابع المعماري

- ومما ساعد أيضا على وحدة الطابع المعماري الإسلامي ما كان من تشابه في الظروف البيئية في أغلب مناطق العالم الإسلامي، فالحرارة شديدة عموما، والسماء صافية والأمطار قليلة، وهذه ميزة البيئة الصحراوية التي تغطي مساحات هامة من هذا العالم.

- ولقد أخذ المعماري المسلم تلك الظروف القاسية بعين الاعتبار، فشيّد عمارة دينية ومدنية وحتى عسكرية تتلاءم مع هذه الظروف. فخصّص فضاء مكشوفاً (الصحن) محاطاً في أغلب الأحيان بأروقة، ليصبح هذا الفضاء أكثر الفضاءات أهمية في العمارة الإسلامية نظراً للأدوار المهمة التي يقوم بها.